

دراسة



السلطنة شجر الدر

بين التاريخ والسيرة الشعبية

دراسة فى القراءة الشعبية للتاريخ

د. قاسم عبده قاسم

إلى العلم، أن التاريخ ارتبط بالأدب على نحو مثير وجذاب، فالقراءة الأسطورية للتاريخ جنحت إلى الصياغة الإبداعية الخيالية لكى ترفع النقص فى ذاكرة الأجيال، كما أن التراث التاريخى الباكى امتزج بالأدب فى تراب شعوب الأرض كلها، فما كتبه «ثوكيديدس» فى التاريخ الإغريقى، تاريخا، قريب إلى درجة مذهلة مما كتبه «أرستوفانيس» فى فن المسرح حول موضوع واحد هو الحرب البلوبونيزية. وهو نموذج على امتزاج الأدب بالتاريخ، أو هو دليل على أن التاريخ كان يعد فرعاً من فروع الأدب. وقد أوصى «شيشرون» - الخطيب الرومانى الشهير - بأن يتسلح الخطيب بالمعرفة التاريخية لأن استخدام الأمثلة التاريخية دليل على التفوق

الدراسة التى نقدمها فى الصفحات التالية تحاول طرح عدد من الأسئلة حول العلاقة بين السيرة الشعبية والتاريخ، ولا تزعم أنها تضع حلولاً أو تقدم إجابات عن هذه الأسئلة. وعلى الرغم من أننى حاولت فى دراسات سابقة حول العلاقة بين الأدب والتاريخ، أو بين التاريخ والموروث الشعبى، أن أجد الإجابات الشافية عن بعض الأسئلة المحيرة، فإن محاولتى أدت بى إلى مزيد من الحيرة ولم أستطع أن أجد الإجابة المسكتة. فالعلاقة بين الأدب، بكافة أجناسه وأشكاله، والتاريخ، علاقة تداخل عضوى وتفاعل متبادل من ناحية، وهى علاقة قديمة ومتجددة فى آن من ناحية أخرى. واللافت للنظر فى رحلة التاريخ من الأسطورة

والأدب الشعبي في محاولة قراء التجربة الإنسانية، وإن اختلف المنظور، فإن الدراسات التاريخية الحديثة ظلت فترة طويلة تخصص الموروثات الشعبية وتترفع عن الاعتماد عليها بسبب غطرسة المؤرخين الذين وقعوا تحت تأثير «المدرسة الألمانية» التي قادها «ليوبولد فون رانكه» وأتباعه المجردون من القدرة على الخيال والتصوير، والذين تصوروا أن «الوثيقة» - وحدها - هي عماد البحث والدراسة التاريخية.

ومع أن التاريخ بدأ مرتبطا بالموروث الشعبي، لاسيما الشفاهي منه على وجه الخصوص، فقد كان لابد له من أن يمر بعدة مراحل «تاريخية» لكي يصل إلى الإيمان بضرورة الاستعانة بالموروثات الشعبية لكي يفهم الإنسان ويفهم الإنسان حقيقة ذاته. وإذا كنا نقول إن التاريخ إحدى وسائل الإنسان لمعرفة ذاته، فإن الموروث الشعبي وسيلة أخرى من الوسائل التي يحاول بها الإنسان تحقيق هذا الهدف، وإذا كانت بداية المعرفة التاريخية قد ارتبطت بالموروث الشعبي قديما، فإن رحلة المعرفة التاريخية - عبر التاريخ - جعلتها تعود وتؤكد ارتباطها بالموروث الشعبي من جديد. وانتقل الفكر التاريخي في رحلة طويلة من الأسطورة إلى العلم التاريخي. ولم تكن الشعوب راضية بنسبة تاريخها إلى حفنة من الحكام الأفراد فسجلت رؤيتها لتاريخها في كافة أشكال الموروثات الشعبية. وحملت هذه الموروثات الشعبية كل التفسيرات والرؤى والقيم والمثل والأمانى والتطلعات التي كانت تحرك الجماعة الإنسانية عبر الزمان. وهكذا كانت تلك الموروثات الشعبية بمثابة قراءة شعبية موازية للقراءة التي قام بها التاريخ لرحلة الجماعة في الكون عبر الزمان. فالماثورات الشعبية لا تحمل كل الحقيقة التاريخية، وإنما تحمل رؤية الشعب

البلاغي. وفي تلك العصور لم يكن التاريخ يدرس مستقلا، وإنما باعتباره من لوازم الامتياز الأدبي والقدرة الخطابية.

كذلك فإن التراث الثقافي للحضارة العربية والإسلامية ربط بين الأدب والتاريخ في نسج واحد مدهش، إذ يجد القارئ في كتب التاريخ العربي الإسلامي الكثير من الأدب، كما يطالع في كتب الأدب كثيرا من التاريخ. ولا يمكن أن نجد تلك الصياغات الجافة للحوادث التاريخية في أي من كتب المؤرخين المسلمين. وعلى الرغم من أن التاريخ كان علما مستقلا في التراث العربي الإسلامي، بحيث ظهرت مؤلفات في تاريخ التاريخ أو في فلسفة التاريخ ومناهج البحث فيه، فإن علاقة التاريخ بالأدب كانت علاقة جدلية تشهد عليها المؤلفات على جانبي الحدود بين الأدب والتاريخ.

وإذا انتقلنا من الأدب، بمعناه الواسع الشامل، إلى الأدب الشعبي الذي أفرزته العقلية الشعبية الجماعية، وجدنا أنفسنا أمام علاقة أكثر قوة وأشد ارتباطا. ففي مجال التاريخ وفي مجال المأثورات الشعبية أيضا، حاول الإنسان أن يعبر عن ذاته وأن يسجل تفاصيل رحلته في الكون، وهي رحلة ما تزال مستمرة حتى الآن في رحاب الزمان. وعلى الرغم من أن التاريخ في محاولة لقراءة التجربة الإنسانية من منظور استردادي يتقصى الحقيقة ويسعى وراءها بحثا عن إجابة للسؤال الذي يبدأ بكلمة «لماذا»، وعلى الرغم من أن الموروث الشعبي، أيضا، محاولة لقراءة التجربة الإنسانية في الكون من منظور نفسي تعريضي يحاول أن يبرز دور صناعات التاريخ الحقيقيين بعد أن سرقه المؤرخون الرسميون والإعلاميون العاملون في خدمة الحكام، ونسبوه لأولئك الحكام، على الرغم من اتفاق التاريخ

وإنما هي نوع من «التاريخ الوجداني» التلقائي الذي يصور «المسكوت عنه» فى المصادر التاريخية التقليدية.

ومن هنا تبرز أهمية السيرة الشعبية، باعتبارها أكثر أنماط الموروثات الشعبية «تاريخية»، إذ أنها أقرب ما تكون إلى رؤية شعبية وجدانية للتاريخ وأحداثه وأبطاله. والراوى فى السيرة الشعبية يخاطب الجمهور المتلقى بما يحب أن يسمع وفى مصطلحات يفهمها. وقد تختار السيرة «شخصا تاريخيا» وتعيد صياغته فى إطار شعبي يناسب «القراءة» الشعبية للتاريخ، وهى قراءة تلبى حاجات الناس وتفسر التاريخ لصالحهم. ولأن معرفة التاريخ ضرورة اجتماعية/ثقافية لأية جماعة إنسانية، فإن الشعوب تتناقل تاريخها عبر الأجيال بشكل تلقائي بسيط من خلال موروثاتها الشعبية. ولأن الشعوب تجدد فى التاريخ سندا لوجودها الأتى ودعما لهويتها وتحققا لذاتها، فإنها تحرص على قراءته بما يحقق هذه الأهداف. ومن ثم فإن القراءة الشعبية للتاريخ لا تحفل أبدا بالتفاصيل الجزئية وغالبا ما تكون هذه القراءة مثقلة بالخيال الذى يكشف عن ماهية القراءة الشعبية للتاريخ، وهى قراءة وجدانية تعويضية لصالح الجماعة التى تصر على إثبات دورها فى صياغة تاريخها.

والسيرة الشعبية التى تجسد هذا النمط من القراءة الشعبية للتاريخ فى تصورنا، هى «سيرة الظاهر ببيرس». والناظر فى صفحات هذه السيرة يدرك بسرعة أن البطل الحقيقى فى أحداثها ووقائعها هو الشعب المصرى الذى ترمز له الشخصيات الشعبية المحيطة بالظاهر ببيرس، بل إن الشخصيات الشعبية هى التى تتولى رعاية ببيرس، وتقوده إلى كرسى العرش وتحميه من

لتاريخه، كما توضح لنا أنماط المثل العليا والقيم وشكل النظام الأخلاقى الذى حكم حركة هذا المجتمع أو ذاك فى الزمان والمكان.

والفرق الجوهرى بين التسجيل «التاريخى» للتاريخ، والتسجيل «الشعبي» للتاريخ، هو أن النمط الأول قصد به أن يكون تاريخا، أى أن القصد منه أن يصل إلى الأجيال التالية بالشكل الذى تمت به كتابته (ونحن نقصد هنا ما سجله المؤرخون فى كتبهم أو ما سجلته الوثائق العامة والخاصة ذات الصبغة التاريخية، ولا نقصد الدراسة التاريخية بمعناها الأكاديمى الحديث). أما التسجيل «الشعبي» للتاريخ، فهو فى حقيقة أمره «قراءة» للتاريخ من وجهة نظر صنّاعه الحقيقين من ناحية، وصالح الجماعة من ناحية أخرى. وهذه «القراءة» التى تدخل ضمن الموروثات الشعبية تعبیر تلقائى عن الناس فى حياتهم ومعهم. وهى أيضا تعبیر عن آرائهم ورؤاهم لأحداث تاريخهم. وربما يحسن بنا أن نشير إلى أن أفضل مصادر التاريخ هى تلك التى لم يقصد بها أن تكون تاريخا. والموروثات الشعبية تقدم الرؤية الجماعية للحقيقة التاريخية لأن الجماعة فى رؤيتها للحدث التاريخى تتجاوز التفاصيل وتقفز فوق الجزئيات التى يهتم بها المؤرخون الأفراد، ولا تأبه لعلاقات الزمان والمكان، وإنما تهتم برسم صورة كلية تحمل كافة الرموز الاجتماعية والثقافية، كما أنها تحرص على بلورة موقفها التاريخى إزاء الأحداث والأشخاص والظواهر التاريخية. وهذا كله هو ما نظن أنه وعى الجماعة بذاتها وإدراكها لعلاقة هذه الذات بالكون والآخر. وفى طيات الصورة الكلية الشعبية للحدث التاريخى وأحداثها الخيالية نجد كثيرا من المضامين التاريخية التى لم يقصد من أبدعها أن تكون تاريخا تقرأه الأجيال القادمة.

غمرة النضال ضد الفرنج. ومن هنا بدأ دورها التاريخي في القيادة السياسية والعسكرية، ثم تولت الحكم بعد مصرع توران شاه بن الصالح أيوب على مدى ثمانين يوما، ثم خلعت نفسها استجابة للرفض الشعبي والرسمى من جانب الخليفة العباسي. وعندما حاولت الاستمرار في الحكم من خلف ستار زوجها عز الدين أيبك التركماني اصطدم طموحها بطموحه ولقى الاثنان مصرعهما على نحو مأساوى مروع اهتم التاريخ بتفاصيله وأهمته السيرة الشعبية تماما.

هذه باختصار قصة «شجر الدر» في التاريخ (راجع التفاصيل في نص الصورة التاريخية)، أما السيرة الشعبية فإنها تقدم لنا «شجر الدر» (لاحظ تغيير صياغة الاسم) في إطار فني ذي أبعاد ثقافية/اجتماعية تحفل بالرموز والدلالات أكثر مما تهتم بالحقائق التاريخية المجردة. والسيرة تجعلها ابنة الخليفة العباسي الذي تسميه «شعبان المقتدر بالله»، وتحكى أن هذا الخليفة لم يكن ينجب بنات وسأل الله تعالى أن يرزقه بنت فاستجاب لدعائه ورزقه ابنة جميلة أسماها «فاطمة»، ثم أطلق عليه كنية «شجرة الدر». ومن المثير أن الراوى يشير إلى الروايات التي تقول إنها جارية فى أصلها ولكنه لا يلبث أن ينفي هذه الروايات مؤكدا أنها ابنة الخليفة. وهكذا تأبى الرؤية الشعبية لهذه السيدة التي لعبت دورا مهما فى إنقاذ البلاد صفة العبودية والرق، وترتقى بها إلى نسب الخلفاء. وهنا وجه الاختلاف الأول بين التاريخ والسيرة. فالتاريخ يقول إن «شجر الدر» جارية تزوجها الصالح نجم الدين أيوب، ولكن السيرة تأبى أن تكون هذه السيدة إلا من نسل خليفة المسلمين. وتخبرنا السيرة من خلال حكاية فرعية أن الخليفة العباسي وهب أرض مصر لابنته «شجرة الدر»،

المكائد والدسائس التي يتعرض لها باستمرار. ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية لهذه السيرة الرائعة (فقد سبق أن تناولناها فى دراسة سابقة)، وإنما نهتم بالتركيز على دراسة إحدى الشخصيات «التاريخية» التي وردت فى الفصول التمهيدية لهذه الدراسة، وأعنى بها السلطانة شجر الدر، التي كانت أول سلاطين دولة المماليك التي حكمت المنطقة العربية على مدى أكثر من مائتين وسبعين عاما بشكل مباشر أو غير مباشر. وقد احتلت شجر الدر مكانا مهما فى التاريخ وفى السيرة الشعبية.

وتقوم الدراسة على أساس منهجى مقارنة، فقد استخرجت صورة هذه السلطانة التي لعبت دورا مهما فى تاريخ مصر والمنطقة العربية فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، من المصادر التاريخية، دونما تدخل بالتفسير أو بالرأى. ثم نقلت الصورة التي رسمتها السيرة الشعبية لهذه السلطانة بنصها من صفحات «سيرة الظاهر بيبرس» حتى تبدو المفارقات والاختلافات بين الصورة التاريخية والصورة الشعبية واضحة لآى قارئ. وعلى الرغم من أننى أدرك أهمية وضع الاستنتاجات بعد النصين، فإننى أجازف بأن أضع ما خرجت به من استنتاجات وملاحظات قبلهما، فرما يكون للقارئ استنتاجات وملاحظات مختلفة، وربما تكون ملاحظاتي السريعة علامات على طريق قراءة «النص التاريخي» و «النص الشعبي» قراءة مقارنة.

نحن نعرف من التاريخ أن «شجرة الدر» كانت جارية اشتراها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأحبها حبا جما، وأنجبت له ولدا بعد أن تزوجها، وساندته فى موقفه من الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع حتى مات زوجها فى

مع « شجرة الدر »، فيضفى الخيال الشعبى عليها بعض الصفات المحببة فى نفوس العامة بحيث يعطى لشخصيتها بعدا دينيا محببا، إذ تحكى السيرة أنها كانت قد عازمت على الإقامة بالحجاز وإنفاق أموالها على الفقراء حتى وصلت أرض مصر. وعندما وجدت أن أحدا لم يرحب بها غضبت وأرسلت تأمر الصالح نجم الدين أيوب بالرحيل. فهى فى الصورة الشعبية سيدة متدينة ذات عفة وكبرياء، لكنها تتصف بالطيبة وحسن الخلق والحزم، كما أنها صاحبة الحق فى حكم البلاد.

ثم ذهبت شجرة الدر للقاء الصالح نجم الدين فى القلعة وأشار عليه وزيره أن يتزوجها حتى يضمن عرشه. وفى البداية رفضت شجرة الدر العرض الذى قدمه الوزير نيابة عن السلطان الذى يطلب زواجها، بيد أن كرامات الصالح أيوب «ولى الله المجذوب» تجعلها توافق على الزواج. وبعد ذلك ظلت تحج سنويا إلى الحجاز وهى بكر وعذراء على مدى اثنتى عشرة سنة، ثم دخل بها السلطان بعد ذلك. وكان حظ شجرة الدر من كرم الخيال الشعبى كبيرا، فقد جعلتها السيرة الشعبية ابنة الخليفة والحاكمة الشرعية لمصر. على الرغم من أن الراوى لم يذكر أنها جلست على العرش وهو ما يخالف الحقيقة التاريخية. وقد غل الخيال الشعبى مشكلة جلوس المرأة على كرسى الحكم بأن جعلها تتزوج الصالح نجم الدين أيوب و «... احتوى على جميع ما تملك يداها، وثبتت له السلطنة وأقام فى عز وهناء وغنى، وجلس يتعاطى الأحكام...» على حد تعبير الراوى الشعبى. كما أن السيرة تجعل من شجرة الدر سيدة متدينة عظوفا محسنة تجول فى البلاد لكى تحسن إلى العباد. ومن المهم أن نشير إلى أن سيرة الظاهر بيبرس جعلت كلا من الملك

ثم نسى ذلك ومنع أرض مصر والشام لصالح الدين الأيوبي. وهنا تبدأ السيرة بالإشارة من طرف خفى (لا يلبث أن يصير صريحا واضحا) إلى حقيقة شرعية الحكم الأيوبي لمصر، فهل يمكن أن تكون هذه الصياغة رد فعل شعبى إزاء الطريقة التى استولى بها صلاح الدين على حكم مصر عندما كان وزيرا للخليفة العاضد آخر الفاطميين الذى عزل ومات وهو لا يعلم أنه آخر الفاطميين؟ أأ أنها تجسيد لموقف المصريين من الأيوبيين؟ ثم تختلق السيرة موقفا يتقابل فيه «الصالح نجم الدين أيوب» - الذى يقول الراوى إن اسمه «الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب» - وهو موقف فنى صاغه الفنان الشعبى ولا يتصل بالحقيقة التاريخية من قريب أو بعيد، ولكنه يحمل بعض الدلالات ذات المغزى عن موقف المصريين من الأيوبيين كلهم من ناحية، كما يفسر موقفهم من الصالح نجم الدين أيوب وشجر الدر من ناحية أخرى. فقد أشارت السيرة إلى أن شجرة الدر أرسلت إلى الصالح نجم الدين أيوب «ولى الله المجذوب» تأمره بأن يترك أرض مصر لأنها أرضها وحجتها معها. وهكذا تشير السيرة صراحة إلى عدم شرعية الحكم الأيوبي لمصر. ولكن الوجدان الشعبى فى الوقت نفسه لا يريد لبطل فى مكانة صلاح الدين الأيوبي أن يبدو مغتصبا للحكم فى مصر فيجعل السبب فى ذلك راجعا إلى نسيان الخليفة العباسى ومنحه أرض مصر مرة لابنته «شجرة الدر» ومرة أخرى لصلاح الدين. ولا ينسى المبدع دور الصالح نجم الدين فى الدفاع عن مصر ضد قوات لوس التاسع رغم المرض فيضعه فى صورة شعبية محببة.

من ناحية أخرى، يظهر من صفحات سيرة الظاهر بيبرس أن الوجدان الشعبى متعاطف تماما

فهل كان هذا أيضا بسبب علاقته «التاريخية»
السيئة بشجر الدر التي أحبها المصريون وقدروا
دورها التاريخي؟

لقد نفت السيرة صفة العبودية عن شجر الدر،
ونسبها إلى أحد الخلفاء العباسيين، كما جعلت
سلوكها مثاليا وهي طفلة ثم وهي امرأة ناضجة،
وكذلك جعلتها تعيش عدة أجيال منذ زمن صلاح
الدين الأيوبي حتى تتزوج الصالح نجم الدين
أيوب. ولا شك في أن إسقاط العيوب عن
الشخصية «التاريخية» لصالح الشخصية
«الشعبية» تعبير صادق وتلقائي عن رأى الناس
في الدور التاريخي لشجر الدر ورويتهم لهذا
الدور، بغض النظر عما أثبتته أعلام المؤرخين
المعاصرين. وربما يجد القارئ مزيدا من الجوانب
عندما يطالع النص التاريخي والنص الشعبى
حول شخصية «شجر الدر».

وفى تصورى أن العلاقة بين الموروث الشعبى
والتاريخ، باعتبارهما قراءتين لأحداث الماضى،
تتجلى واضحة فى المقارنة بين صورة السلطنة
«شجر الدر» فى المصادر التاريخية، والسيدة
«فاطمة شجر الدر» فى «سيرة الظاهر بيبرس».

هذه الدراسة تضع «أسئلة» أكثر مما تقترح
«إجابات». وربما توجد فى طيات النصين، اللذين
نقدمهما فى الصفحات التالية، بعض هذه
«الإجابات». بيد أن أهم ما نهدف إلى الوصول
إليه من خلال هذه الدراسة «الأولية» هو تقرير
العلاقة الوثيقة بين التاريخ والموروثات الشعبية.

الملكة شجر الدر

«السلطنة الملكية عاصمة الدين
المستعصية الصالحة ملكة المسلمين»
الصورة التاريخية

الصالح نجم الدين أيوب وزوجته «فاطمة شجرة
الدر» بمثابة الأب والأم للبطل بيبرس، فإن الصالح
يرعاها طوال مراحل حياته ويرقيه فى خدمته لكى
يعده لمهام الحكم، على حين تتباه «شجرة الدر»
أو السيدة فاطمة. ومن المثير أننا نجد السيرة
تتخلص رويدا رويدا من اسم «شجرة الدر»
وتستخدم بدلا منه اسم «السيدة فاطمة». ومن
المعلوم أن هذا الاسم له أهمية خاصة وقدر من
التبجيل والاحترام لدى المصريين لأنه اسم ابنة
النبي عليه الصلاة والسلام.

فهل يمكن أن يكون الخيال الشعبى قد أعاد
إنتاج شخصية السلطنة شجرة الدر، أولى
سلاطين المماليك، فى هذه الصورة الجميلة الأخاذة
تقديرا لدورها فى الدفاع عن مصر أمام قوات
لويس التاسع الذى لقيت حملته هزيمة شنعاء فى
المنصورة وفارسكور فى منتصف القرن السابع
الهجرى/ الثالث عشر الميلادى؟ وهل يمكن أن
تكون قصة زواجها من الصالح نجم الدين أيوب
حلا لمشكلة الحكم الذى لم تستمتع به سوى
ثمانين يوما حافلة بالأعاصير السياسية التى هبت
على المرأة السلطنة من كل اتجاه؟ ولأن العقلية
الشعبية لا تقبل حكم المرأة فقد جعلتها تتنازل
عن حقها فى الحكم لزوجها الصالح نجم الدين
أيوب، وليس المعز أيك كما حدث بالفعل فى
التاريخ، فهل يمكن أن يكون ذلك حلا لتوفيقيا
لمشكلة جلوس شجر الدر على عرش البلاد من
ناحية؟ وتجاهلا لدور عز الدين أيك الذى تنكر
لشجر الدر التى أجلسه على عرش البلاد من
ناحية أخرى؟

إن السيرة الشعبية تتجاهل تماما علاقة عز
الدين أيك بشجر الدر، بل إن الفنان الشعبى قد
وضع أيك داخل إطار شخصية مقبلة كرهبة
أسعغ عليها - بكرم شديد - كل الصفات السيئة.

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس، وقيل إنها أرمينية الأصل. اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وأحبها حبا جما «... بحيث كان لا يفارقها سفرا ولا حضرا». وقد ذكرها بعض المؤرخين باسم «شجر الدر بنت عبدالله أم خليل التركية». ويبدو أن «بنت عبد الله» هذه تسمية مجازية لأنها كانت في الأصل جارية مجهولة النسب، فسميت بنت عبد الله وهي تسمية شائعة لمن لا يعرف أبوه أو لمن ليس لهم نسب معلوم.

وكان للسلطان الصالح نجم الدين زوجتان، الأولى هي المعروفة باسم «بنت المعلم» والثانية شجر الدر. وقد أنجبت للملك الصالح، وهو معتقل في الكرك، ولده خليل. وكان قد عقد عقده عليها، وصارت زوجة له. ولما خرج من معتقله عاد إلى مصر ومعه ابنه خليل إلى القاهرة عندما صار سلطانا عليها. ومات خليل في حياة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صغيرا.

يذكر المؤرخ المقرئ أنها كانت امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، قوية البأس «... ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة، سكرانة من خمر التيه والعجب...»، والحقيقة أن هذا المؤرخ لم يبالغ كثيرا في وصفه لشجرة الدر، إذ كانت صاحبة الفضل في هزيمة الحملة الصليبية السابعة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر في منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وقد تولت العرش اعترافا من كبار الأمراء ورجال الدولة بفضلها. ولنبأ القصة من أولها.

في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. وبسرعة

عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من بلاد الشام لتنظيم وسائل الدفاع. وفي خريف سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م كان الأسطول الصليبي قد أبحر من ميناء مرسيليا إلى قبرص حيث أمضى فترة من الوقت في انتظار تكامل القوات. ثم أبحرت الحملة في السنة التالية صوب مصر لتصل قبالة دمياط في صفر ٦٤٧ هـ / يونية ١٢٤٩م. ونزل لويس التاسع أمام قواته يخوض المياه الضحلة حتى ركبتيه وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وانسحبت القوات المدافعة عن دمياط بعد أن ظن القادة أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات. وفي أعقاب الفرسان والجنود فر السكان المذعورون. وهكذا سقطت دمياط في وداعة مذهلة لقوات الحملة الصليبية السابعة. وأخذ الصليبيون يدمعون وجودهم في المدينة الأسيرة.

واستقبل السلطان أنباء سقوط المدينة، التي بذل جهدا كبيرا في تحصينها بمزيج من الألم والمرارة والغضب، وأعدم عددا من الفرسان الهارين. ثم نقل معسكره إلى مدينة المنصورة التي كانت قد أنشئت قبل ثلاثين سنة فقط. وربطت السفن الحربية المصرية في النيل تجاه المنصورة، وأخذت جموع المتطوعين تتجمع في المنصورة لمواجهة خطر الزحف الصليبي. وبدأت حرب عصابات برية ونهرية وتزايدت أعداد أسرى الفرنج الذين كان يتم عرضهم في القاهرة على مدى ستة أشهر (يونية/ نوفمبر ١٢٤٩م).

وفي تلك الأثناء توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن عهد لولده توران شاه بعرش السلطنة في مصر. ويبدو أنه رتب كل هذا مع زوجته «شجر الدر» وهو على فراش الموت بدليل أنها استدعت الأمير «فخر الدين بن شيخ الشيوخ» و «الطواشي جمال الدين محسن»،

الذى كان من أقرب الناس، إلى قلب السلطان المتوفى، وأعلمتهما بالخبر دون سواهما وأوصتهما بكتمان خبر وفاة السلطان عن جميع رجال الدولة والناس.

وبفضل شجاعتها وقوة بأسها بدأت «شجر الدر» فى إدارة شئون الدولة ومسرح العمليات العسكرية وكان السلطان الصالح نجم الدين أيوب ما يزال حيا. فقد كلفت عددا من الأطباء الذين يمكن الاعتماد عليهم فى حفظ السر بأن يقوموا بتفسييل جثة السلطان. ثم أرسلت الجثة السلطانية، بعد تحنيطها، فى تابوت على ظهر سفينة أبحرت ليلا إلى قلعة الروضة حيث بقيت مخنطة مدة قبل دفنها بالقاهرة فى هدوء تام.

ومن ناحية أخرى، استغلت شجر الدر السلطات الواسعة التى وجدت بها بيديها فجأة لكى تثبت أن هذه الجارية التى خرجت من حريم السلطان لتكون زوجته جديرة بأن تتولى حكم مصر فى فترة شديدة الحرج من تاريخها. فأعلنت أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب مريض اشتد مرضه، ولا يزوره أحد سوى أطبائه بالقصر الكاملى (نسبة إلى أبيه الملك الكامل) فى المنصورة، وبعثت إلى نائب السلطنة بالقاهرة «الأمير حسام الدين بن أبى على» رسالة بهذا المعنى. واستخدمت أوراقا بيضاء، قبل أن السلطان كتب عليها علامته. أى توقيع. قبل وفاته، لإدارة شئون الحكم والحرب. وهناك رواية أخرى تقول إن خادما اسمه «صواب السهيلى»، كان يتقن كتابة العلامة السلطانية اتقانا كبيرا بحيث أن أحدا لم يشك فى أن المراسيم والأوامر السلطانية مزورة، ومنهم الأمير أبو على نائب السلطنة نفسه.

وبموجب هذه السلطات الواسعة استدعت «شجر الدر» أمراء الجيش وزعماء المماليك إلى القصر

السلطاني بالمنصورة وأخبرتهم أن المرض اشتد على السلطان وأنه يرغب فى أن يحلف الأمراء له ولائنه توران شاه من بعده، وأن يحلفوا للأمير «فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ» بالقيادة العامة على الجيش المصرى مع اشتراكه فى تدبير أمور الحكم، فأجاب جميع الحاضرين بالسمع والطاعة وحلفوا على ذلك. ثم بعثت «شجر الدر» مرسوما إلى نائب السلطنة بالقاهرة لشرح ما تم من تحليف أمراء الجيش وزعماء المماليك، وقام الأمير «حسام الدين بن أبى على» فى يوم الاثنين ٢١ شعبان ٦٤٧هـ / ٢٩ نوفمبر ١٢٤٩م بتحليف أكابر الدولة وضباطها على ما تم فى المنصورة. وأمر الخطباء بالدعاء فوق المنابر للأمير توران شاه بعد أبيه الصالح نجم الدين أيوب. هكذا استطاعت شجر الدر، بسرعة وحسم شديدين، أن تضمن استقرار الأحوال السياسية وترتب لانتقال السلطة دون أن تورط البلاد فى المشاكل المعهودة فى مثل هذه المناسبات فى ذلك الزمان. ويبدو أن شجر الدر اختارت هذه المناسبة لكى تشرك الأمير «أبيك التركمانى»، الذى كان من أكبر ممالك زوجها مرتبة وأعظمهم حظوة عندها شخصا، فى تدبير شئون الحكم بالملكة. وأرسلت «فارس الدين أقطاي»، أخطر زعماء المماليك البحرية وأشداهم بأسا، إلى حصن كيفا بأعلى الفرات لإحضار الأمير توران شاه ليتولى عرش السلطنة بعد أبيه.

وترتب على هذه التعيينات أن عين الأمير «ركن الدين بيبيرس البندقدارى». الذى تولى عرش السلطنة فيما بعد. قائدا لفرقة المماليك البحرية الصالحة على أن تكون قاعدتها داخل معسكر المنصورة حول القصر السلطاني.

فى تلك الأثناء كان الملك لويس التاسع قد قرر مواصلة الزحف بجيشه صوب الجنوب على أمل

أنمو بناء المعدات أمطرتهم المجانيق المصرية بوابل من قذائف النار الإغريقية لتحرقها لهم. وزادت هجمات القنانيين المصريين على المعسكر الصليبي وزادت بالتالي أعداد الأسرى، ورأى الملك لويس التاسع أن يبادر بالهجوم لإنهاء هذا الموقف.

وهنا بدأت مواهب «شجر الدر» تعلن عن نفسها، فقد وضعت خطة مع ركن الدين بيبرس لإحباط الهجوم الصليبي المتوقع. وتم وضع عدد من الكمان من الجيش المصرى فى أماكن مختلفة من المدينة وأمر السكان بملازمة بيوتهم ومنع التجول مع الاستعداد للقتال. وبالفعل دخلت فرقة كبيرة من الصليبيين إلى المنصورة شارك فيها الكونت أرتو شقيق الملك، وفرقة من فرسان الداوية المشهورين بقسوتهم ووحشتهم فى القتال، وفرقة من الفرسان الإنجليز المتحمسين. وأطبقت عليهم فى شوارع المنصورة وأزقتها قوات بيبرس وأهالى المنصورة وأبادوا معظم فرسان الصليبيين، وهرب الباقون بصعوبة بالغة.

ثم هدأت الأحوال بين المعسكرين على مدى ثمانية أسابيع. وكان توران شاه قد وصل بعد أن أرسلت شجر الدر لاستدعائه، ووضع خطة جديدة لقتال الصليبيين وإرغامهم على التسليم عن طريق الحصار النهري. وبالفعل تمكنت السفن المصرية من أسر عشرات من سفن الأسطول الصليبي بما عليها من المؤن والأقوات وبمن عليها من الرجال. وساء حال الصليبيين وطلب ملكهم الهدنة على أساس مبادلة دمياط ببيت المقدس ورفض المصريون. وحين حاول الملك وفرسانه الانسحاب هاجمهم المصريون وطاردوهم حتى فارسكور فقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا بمن فيهم الملك لويس التاسع نفسه. ثم سجن فى دار القاضى «فخر الدين بن لقمان» بالمنصورة إعلانا

دحر الجيش المصرى فى المنصورة، ثم الاستيلاء على القاهرة. وفعلا دخل الجيش الصليبي فارسكور دون مقاومة وطار الحمام الزاجل بأنباء الزحف الصليبي إلى المنصورة والقاهرة. ولم تفزع «شجر الدر» وأرسلت رسالة من إنشاء الشاعر «بهاء الدين زهير» وعليها علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب افتتاحها، بعد البسملة: «انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون». وقرئت الرسالة من على المنابر فى صلاة الجمعة بمساجد القاهرة وجوامعها، وبدأت أعداد المتطوعين تسافر إلى المنصورة فى جموع متزايدة.

وربما يكون الملك لويس التاسع قد عرف بموت السلطان عن طريق استجواب أحد الأسرى أو الجرحى المسلمين. على أية حال، واصل الملك الفرنجي زحفه صوب الجنوب فاستولى على شارمساح (عشرين كيلومترا جنوبى فارسكور) ثم البرمون على مسافة عشرة كيلومترات جنوبا. ولم يبق أمام الجيش الصليبي سوى المنصورة، قاعدة الدفاع الرئيسية حيث كانت شجر الدر تقيم وسط قيادة الجيش وزعماء المماليك. ووصلت القوات الفرنجية إلى جديلة على مشارف المنصورة من ناحية الشرق لا يفصل بينهم وبين المسلمين سوى مياه البحر الصغير (بحر أشموم طنّاح)، وهناك معسكرات قوات الصليبيين وأمامهم فوق مياه هذه الترعّة عدد كبير من مختلف أنواع السفن الصليبية. وعلى الناحية الأخرى كان معسكر المسلمين فى جديلة. وبإزاء مدينة المنصورة فى فرع النيل الدمياطى انتشرت سفن الأسطول المصرى.. وهكذا كان الماء يفصل بين الجانبين.

وبدأ الصليبيون استعداداتهم للعبور، وكلما

بنهاية الحملة الفاشلة.

ولكن توران شاه لم يكن على مستوى الموقف التاريخي الحرج، وإنما أظهر كراهيته لأمرء الممالك البحرية. وكان فتى عنيف الأهواء متكبرا، وقرب إليه الأكراد الذين جاءوا معه على حساب البحرية. وكان إذا سكر بالليل - حسب رواية المؤرخ تقي الدين المقرئى - أمسك سيفه وأطاح بالشمرع واحدة واحدة وهو يقول «هكذا أفعل بالبحرية». وقد نقل الخدم عنه ذلك إلى البحرية فصمموا على قتله. كذلك تنكر توران شاه لزوجته أبيه شجر الدر التى يدين بعرشه لها، فأرسل إليها يتهددها ويتوعدها ويطلبها بأموال أبيه السلطان الصالح نجم الدين أيوب. وعندما أجابته بأن الأموال صرفت كلها فى شئون الحرب وحفظ البلاد وإدارتها رفض أن يصدقها، فخشيت على نفسها وتلكها منه خوف شديد فسافرت إلى القدس حتى تكون فى مأمن من شره إلى حين. وأرسلت إلى الممالك البحرية تشكوهم وتعيب عليهم ملكه الخشن الغليظ نحوها على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمتها له وقت غيابه عن مصر.

وكان الممالك يحترمون شجرة الدر ويخلصون لها لأنها زوجة أستاذهم الصالح نجم الدين أيوب من ناحية، ولأنها أظهرت من القدرات والصفات القيادية ما لمسوه بأنفسهم فى خضم المعارك من ناحية أخرى. وجاءت شكواها موافقة لما فى نفوسهم من كراهية ونفور من المعظم توران شاه، فقام أربعة من كبار أمرائهم بقتله فى فارسكور يوم الاثنين ٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م. وكان منهم فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس البندقدارى.

ولما قتل الملك المعظم غيأث الدين توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، اجتمع الأمراء

الممالك البحرية، وأعيان الدولة وأهل المشورة، بالدهليز السلطاني واتفقوا على تولية شجر الدر عرش السلطنة فى مصر، وأن تكون العلامات السلطانية على التواقيع (أى نسخ الأوامر بتعيين شخص على إقطاع). وحين عرض منصب مقدم العسكر على كل من الأمير حسام الدين بن أبى على الهذباني والطواشى شهاب الدين رشيد رفض كلاهما، فتم الاتفاق على أن يكون مقدم العسكر (أى قائد الجيش) الأمير عز الدين أيبك التركمانى. وحلفوا على ذلك. وخرج الأمير عز الدين الرومى من المعسكر إلى قلعة الجبل، حيث كانت تقيم شجر الدر، وأخبرها بما تم الاتفاق عليه فأعجبها.

وهكذا، صارت شجر الدر أول سلاطين الممالك فى مصر. وصارت الأمور كلها بيدها والتواقيع تبرز من قلعة الجبل وعليها علامتها «والدة خليل». وخطب لها على منابر العاصمة المصرية. ونقش اسمها على عملة البلاد فى الصيغة التالية «المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل». وكان الخطباء فى خطبة الجمعة يقولون فى الدعاء: «اللهم وأدم سلطان الستر الرقيق، والحجاب المنيع، ملكة المسلمين والدة الملك خليل». وبعضهم يقول بعد الدعاء للخليفة: «واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل صاحبة الملك الصالح».

بعد أن استقر الحكم للسلطانة شجر الدر، بدأت تولى اهتمامها لتصفية الوجود الصليبي مع الملك الصليبي الأسير على تسليم دمياط. وتم الاتفاق على تسليم المدينة وإخلاء سبيله وكبار الأسرى مقابل فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل الرحيل والنصف الآخر بعد وصوله إلى عكا التى كانت بأيدى الصليبيين. وقامت

موقف أمراء المماليك. وفي هذا يقول المؤرخ ابن أبيك الدوادارى: «سبب ملك المعز أن الأمراء لما نظروا ما جرى من التشويش، وما الناس فيه من النهب، وقلة الحرمة، وتحريك الملك الناصر صاحب الشام عليهم من جهة، وتحريك الملك المغيـث صاحب الكرك عليهم من جهة أخرى، علموا أن المرأة لا تقوم بسياسة المملكة، وأن الطمع قد وقع لذلك، فأجمعوا رأيهم وأقاموا الأمير عز الدين أبيك التركمانى...».

وخلعت شجر الدر نفسها من الحكم بعد ثمانين يوما جلست خلالها على عرش مصر. ويقول المؤرخ ابن واصل إن حكم المرأة أمر لم يعرف مثله فى أى بلد من بلاد الإسلام على الرغم من أن الأميرة ضيفة خاتون بنت السلطان العادل الأيوـبى كانت تتولى الحكم فعليا فى حلب وبلادها بعد موت ولدها العزيز، ولكن الخطبة كانت لابنها الناصر. وظلت تمسك بزمام الحكم فى حلب إلى أن ماتت. كذلك كانت هناك امرأة أخرى جلست على العرش فى بلد مسلم هى «رضية الدين» سلطنة دلهى (١٢٣٦ - ١٢٤٠م).

تولى عرش السلطنة عز الدين أبيك التركمانى وأخذ لنفسه لقبا سلطانيا هو «الملك المعز» بعد أن تزوج شجر الدر، وبذلك بدأت مرحلة جديدة فى حياتها. وربما يكون أمراء المماليك قد اختاروا عز الدين أبيك التركمانى لأنه لم يكن قويا... وليست له شوكة ومتى أردنا صرفه صرفناه...» حسب رواية المؤرخ ابن تغرى بردى. والراجح أنه ظل فترة يحكم بوصفه زوج الملكة. ولكنه تغير على زوجته شجر الدر «... وتعاظم منذ مقتل أقطاي. وكان قبل ذلك لا يقطع أمرا دونها...» واستبد بأمور المملكة بنفسه ولم يعد يذهب إلى شجر الدر إلا ثلاث ليال فى الأسبوع. ويبدو أن عز الدين أبيك أراد تدعيم مركزه

زوجة الملك مرجريت دى بروفانس، التى كانت مقيمة فى دمياط حيث ولدت ابنتها جان تريستان (أى حنا وليد الأحرار)، بجمع المبلغ.

وكان فارس الدين أقطاي غاضبا من التطورات التى أدت إلى سلطنة شجر الدر وقيادة أبيك للجيش، وزاد من حنقه الإفراج عن الملك الصليبي فأمره جنوده بنهب معسكر الفرنج، ولم يلق بالا إلى احتجاجات الملك. وأخيرا أبحر لويس التاسع إلى عكا وانتهت الحملة الصليبية السابعة.

وبعد تحرير دمياط أعدت شجر الدر هداياها وأموالها على أمراء المماليك البحرية وعلى الفرسان والجنود. ولكن المصريين لم يقبلوا قيام امرأة على عرش السلطنة وقاموا بالمظاهرات والاضطرابات فى العاصمة حتى اضطرت السلطات إلى غلق أبواب القاهرة منعا لتسرب أخبار الاضطرابات إلى بقية البلاد. ويبدو أن رجال الدين كانوا هم المحرضين وراء هذا التمرد، بدليل أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ألف كتابا حول المصائب التى تحمل بالمسلمين إذا تولت الحكم فى بلادهم امرأة على حـد رواية المؤرخ السيوطى.

وعندما وصل خبر مقتل توران شاه وإقامة شجر الدر فى السلطنة إلى دمشق رفض الأمراء أن يحلفوا لها يمين الولاء والطاعة، وانتهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب، وحفيد صلاح الدين الأيوـبى الفرصة فاستولى على دمشق وغيرها من مدن الشام وسار بجيشه قاصدا غزو مصر. وفى القاهرة اجتمع الأمراء المماليك وجددوا الحلف لشجر الدر، ولكن أخبار سقوط دمشق، ورد الخليفة العباسى المستعصم على رسالة المماليك بطلب تأييده لسلطنة شجر الدر، والذى قالت فيه «إن كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير إليكم رجلا»، كل هذا أدى إلى تفسير

قتل أبيك، وتعرض عليه الزواج وعرش مصر. ولكن الناصر يوسف خاف أن يكون في الأمر خدعة ولم يجيبها بشيء، وعلم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بأمر رسالة شجر الدر إلى الناصر، فأرسل إليه محذراً، «... فتباعد ما بينهما وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة، وكانت شجر الدر قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها، وتمنعه من الاتصال بأم على (زوجته الأولى) وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح...».

وخاف أبيك على حياته، فترك القلعة وأقام بمنابر اللوق عند زوجته أم على وصمم على قتل شجر الدر قبل أن تقضى عليه. وانتهى السباق بانتصار شجر الدر التي أرسلت إلى أبيك رسالة رقيقة تتطلف به وتدعوه للحضور إليها بالقلعة، كما أرسلت إليه «... من حلف عليه...» فاستجاب عز الدين أبيك لدعوة شجر الدر فطلع القلعة وقد أعدت له خمسة رجال أشداء ليقتلوه. وركب المعز من الميدان بأرض اللوق وصعد إلى القلعة آخر النهار. ودخل الحمام ليلاً فأغلقوا عليه الحمام وبادروه بالضرب فاستغاث بشجر الدر فقالت اتركوه ولكنهم رفضوا وقالوا لها متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك. ثم قتلوه على حسب رواية المؤرخ تقي الدين المقرئ. ولكن ابن أبيك الدواداري ينفرد برواية أخرى تقول إن شجر الدر أعدت له في الحمام مملوكاً قوياً من ممالك فارس الدين أقطاي، كان اسمه بلكان، فلكم المعز لكمة طرحته أرضاً «... وتعلقت الجوارى بمعاريه وبعضهم يرفسونه في خواصره، وشجر الدر تضربه بالققباق، وهو يستغيث إليها وهي لا تقبل حتى فطس...».

وبعثت شجر الدر إصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أبيك الحلبي الكبير لكي يتولى الحكم

السياسي بمصاهرة البيت الأيوبي الحاكم في الشام. وكانت العلاقات بينه وبين زوجته شجر الدر قد ازدادت سوءاً وبنات كل منهما متوجساً من الآخر. ويحكى المؤرخ تقي الدين المقرئ أن المعز أبيك عقد العزم على قتل شجر الدر «... وكان له منجم أخيره أن سبب قتلته امرأة، فكانت هي شجر الدر...» وعندما عرفت شجر الدر أن المعز أبيك بعث يخطب ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وبنت صاحب حماة «... أخذتها الحرة وملكتها الغيرة...» حسب تعبير المؤرخ بيبرس الدوادار. وفي هذا الصدد تتناقض المصادر التاريخية رواية رواها ابن أبيك الدواداري عن جده الذي كان أحد شهود العيان، ومؤداها أن السلطان المعز أبيك قبض على عدد من المماليك البحرية، وكان جد المؤرخ ابن أبيك الدواداري واحداً منهم، وأرسلهم لكي يعتقلوا في قلعة الجبل وفيهم الأمير أيديكين الصالحى. فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجر الدر علم أيديكين أنها كانت هناك فأحنى رأسه تحية وإجلالاً لها، وقال بالتركية: «المملوك أيديكين البشمقدار (أبى الذى يحمل نعل السلطان)، والله ياخوند ما عملنا ذنباً يوجب مسكننا إلا أنه سُرَّ يخطب بنت صاحب الوصل ما هان علينا لأجلك، فإننا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين». فأومأت إليه شجر الدر بما يعنى أنها سمعت كلامه. فلما نزل بهم الحراس إلى الجب (سجن القلعة) قال أيديكين: «إن كان قد حبسنا فقد قتلناه...».

كانت حركة عز الدين أبيك الدبلوماسية لمصاهرة بنى أيوب بمشابهة اللعب بالنار، لأن شجر الدر أخذت بسببها تتزعم المعارضة الداخلية والخارجية ضد السلطان. وقد أرسلت سرا إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عزمّت على

سيرة الظاهر بيبرس - تاريخ الملك
العادل صاحب الفتوحات المشهورة
السلطان محمد الظاهر بيبرس ملك
مصر والشام وقواد عساكره ومشاهير
أبطاله مثل شيعة جمال الدين وأولاده
إسماعيل وغيرهم من الفرسان وما جرى
لهم من الأهوال والحيل وهو يحتوى
على خمسين جزءاً.

الطبعة الأولى

ملتزمة الطبع والنشر عبدالحميد أحمد حنفي -
بشارع المشهد الحسيني

شجرة الدر السيرة لشعبية

تبدأ سيرة الظاهر بيبرس بقصة خيانة الوزير
العلقمي للخليفة العباسي الذي تسميه المقتدر
بالله شعبان بحيث يتم للمغول بقيادة هولاكو
الاستيلاء على بغداد وسجن الخليفة. ثم يأتي
صلاح الدين يوسف الكردي بجيش من الأكراد
المسلحين بالسيوف والخشب والأتراس الجميز
ليخلص الخليفة من السجن ويهزم المغول بمعجزة
صوفية. ويكافئهم الخليفة بضيافتهم تسعين
يوماً. ثم يخرج إلى الصيد ومعه مائة من
الفرسان الأكراد لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع
يدخل بغداد «... وإذا به قد وجد عقداً من
الجواهر معلقاً على دكان واحد جواهرجي فتأمله
وإذا به عقد من عقود السلطنة. وكان الملك
شعبان المقتدر أعطى ذلك العقد لابنته...».

هذا هو المشهد الافتتاحي في السيرة لتقديم
«شجرة الدر»، كما تسميها السيرة الشعبية «قال
الراوي: وكان لهذا العقد سبب عجيب بعد الصلاة

فلم يجسر على ذلك، فأرسلت إلى الأمير جمال
الدين بن أيدغدي العزيزي فخاف على نفسه.
ولكى تبرئ شجر الدر نفسها أشاعت أن المعز
أيك مات فجأة في الليل، وأمرت النسوة
بالصياح والبكاء في القلعة، ولكن ممالك عز
الدين أيك لم يصدقوا ذلك وهجموا على الدور
السلطانية بالقلعة، وقبضوا على الخدم والحريم
وعذبوهم حتى اعترفوا بما جرى. فقبضوا على
شجر الدر وثلاثة من الخمسة الذين اشتركوا في
قتل السلطان. وعندما أراد ممالك المعز قتل شجر
الدر حماها ممالك السلطان الصالح نجم الدين
أيوب ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة لتبقى فيه
فترة من الوقت.

ولكن امرأة المعز الأولى أم علي انتهزت فرصة
قيام ابنها الصبي على عرش البلاد وطلبت أن
يأتوا إليها بشجر الدر. فأمرت جواربها بضربها
بالقباقيب حتى ماتت، ثم ألقيت جثتها من سور
القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل،
فبقيت في الخندق أياماً حتى نتنت جثتها وحملت
في قفة لتدفن بتريتها قرب مشهد السيدة
نفسية.

ولم تشأ شجر الدر أن تموت دون أن تفعل شيئاً
تؤكد به «قوة نفسها»، فعندما عرفت أن قتلها
صار وشيكاً كسرت الكثير من جواهرها ولآلئها
في «الهاون» حتى لا تأخذ غريمتها أم علي.
هذه قصة «شجر الدر» كما ترويها المصادر
التاريخية المعاصرة، فكيف صورها الوجدان
الشعبي العام في سيرة الظاهر بيبرس؟

الملكة شجر الدر

«السلطنة الملكة عصمة الدين
المستعصية الصالحية ملكة المسلمين»
الصورة الشعبية

العقد المليح؟ فقال: يا سيدي، رجل سائل باعه لي، وقد ذكر لي، وقال لي: إن أهل الخير تصدقوا به عليّ. فلما سمع المقتدر ذلك من الجواهرجي تعجب وقال في نفسه: لا بد أن انسيدة شجرة الدر طلت من شبك القصر، فأنفك العقد من عنقه، وسقط على الأرض غصبا عنها، فأخذه هذا الرجل وسار به إلى هنا، وباعه إلى ذلك الجواهرجي. قال الراوي: ثم إن المقتدر التفت إليه وقال: يا هذا بكم اشتريت العقد من السائل؟ فقال له: يا مولاي اشتريته بخمسة آلاف دينار. فقال له الخليفة: اعلم يا هذا لا بد لي من أخذ العقد وأزيدك على ثمنه. ثم إنه أخذ العقد منه، وأمر له الخليفة بعشرة آلاف دينار.

«ثم إن الخليفة المقتدر أخذ العقد وجعله داخل جيبه، وسار إلى أن وصل إلى سرايته، وصعد إلى زوجته، وجلس في قصره على مرتبته، فأقبلت فاطمة شجرة الدر إليه وقبلت يديه. فنظر الخليفة إلى عنقها، فلم ير عقدها، فقال لها: يا فاطمة أين العقد الذي مفك، ما هو الآن في رقبتك؟ فقالت له: يا سيدي هو عقدى ويعينى، وأنا محترسة فيه غاية جهدى وقوتى. فقال لها: لأى شيء تركتيه ومن عنقك قلعتيه؟ فقالت له: من شدة الحر لأنه من الجواهر (يا سادة). وكان المقتدر بالله يحب فاطمة شجرة الدر حبا شديدا، ما عليه من مزيد، لأنه ما عنده غيرها، وهو مشفق بمحبتها. ويقال إنها ليست ابنته، وإنما هي بنت الكامل بالله، وهو والده وهى أصغر منه سنا وقد أحبها محبة شديدة. وقيل إنها بنت جارية بيضاء ورفيقتة، وأخذها منها وجعلها ابنته. ولكن الأصح أنها ابنته من ظهره بلا محال. وإنما ذكرنا ذلك لأجل اختلاف الأقوال». مرة أخرى تؤكد السيرة أن شجرة الدر ابنة الخليفة، ويلعب الراوي هنا على أوتار التاريخ لإيهام السامعين

على النبى الحبيب، وهو أن الملك شعبان المقتدر بالله كان عديم الخلفة من ذرية البنات، وكان لم يرزق بهن فى تلك السنوات، وهو يحبهن أكثر من الغلمان، وكان متولع بهن، فقام ليلة من الليالى وسأل الله تعالى بعد أن صلى ركعتين فى جوف الليل ودعا الله أن يرزقه ذرية من البنات فاستجاب الله دعاءه. ورزق ببنت كأنها القمر إذا بدر ليلة أربعة عشر. فسمها فاطمة ولما تمت الرضاع ومشيت وتكامل لها من العمر سبع سنوات فمن محبته لها قد فصل لها بدلة من الدر وألبسها إياها، وجعل العقد فى رقبتها. وقد رآها بعد خروجه من السجن وأنها قد أتت إليه، وقبلت يده، وسلمت عليه وهنته بسلامته. فقال لها أهلا وسهلا ومرحبا يا سيدتى فاطمة يا ابنتى، أنت الآن مثل شجر الدر، كففاك الله شر كل بؤس وضر. فكنت بشجرة الدر من تلك الساعة، ويعد ذلك سار إلى الصيد والنقص كما ذكرنا».

هكذا جعلت السيرة شجرة الدر بنت الخليفة وأعطتها اسم بنت النبى. «والسيدة فاطمة بعد مسير أبيها جلست فى شبك قصرها فى يوم من الأيام وكان تحت القصر رجل سائل، وهو يقول: هنيئا إلى فاعل الخير، تصدقوا ترزقوا خير المعاطى ما كان لله. فلما أن سمعت السيدة فاطمة شجرة الدر ذلك رق قلبها وحتت أعضاؤها وقالت فى نفسها: خير ما عندى هذا العقد. ثم إنها انتزعت العقد من عنقها ورمته إلى السائل، فلما رآه السائل فرح به، وأخذه وسار من ساعته وهو فرحان. ولكنه ما يعلم له ثمن (ياسادة). ثم سار به إلى السوق، وصار ينادى عليه، فأخذه منه رجل جواهرجي بمائة ذهب، وفرح بذلك السبب.. فلما عاد المقتدر ونظر إلى ذلك العقد عرفه، فأقبل على الدكان وقال للجواهرجي أخبرنى بالصحيح ودع عنك التلويع، من الذى باعك ذلك

وجدت العقد عند الجواهرجى، وأتيت به معى، وأمرتك إنك تأتى به من خزانتك، فذهبت من حينك، وخرجت به فاخبرني ما السبب فى هذه الأمور والأحكام وإلا ضربت عنقك بهذا الحسام وأسقيتك كأس الحمام. فلما سمعت ابنته منه ذلك الكلام، ونظرت بعينها الحسام، أخبرته بالخبر من أوله إلى آخره، وكشفت له عن باطن الأمر وظاهره. فلما تحقق منها ذلك قال: أنت محبوبة الله تعالى ولأوليائه الصالحين، تمنى يا فاطمة، فقالت: تمنيت على الله، ثم على جانب أبى أرض مصر تكون لى باسى. فلما سمع الخليفة مقالها، أجابها إلى مرادها، وقال لها: إن الله أعطاك ويلغك منك. ثم إنه كتب حجة من وقته وساعته بذلك الذى طلبته. فأخذتها عندها وجعلتها فى خزانتها. وقد فرحت بما نالها، وشكرت ربها على ما أعطاها، وكيف أن مصر صارت لها. وكان ليس فى زمانها مثلها، ولا فى فصاحتها، فأنشدت تقول:

سأحمد ربى فى كل ساعة
على نعمة لم أقدر أمضيها
قد من على الكريم بفضلها
وولغنى من الدنيا أمانيتها
وعزنى رب الأنام بعزه
وأعطانى معاطى لم أقدر أكافيتها
فله الحمد شكرا ومنة

على وهبه مصر إباى وما فيها
هنا تجعل السيرة من شجرة الدر حاكما شرعيا
على مصر، بفضل حب الله وأوليائه الصالحين لها، بخلاف الحقيقة التاريخية التى تقول إن الخليفة المستعصم العباسى رفض منحها الشرعية لكونها امرأة.

تتحدث السيرة بعد ذلك عن الأكراد الأيوبيه الذين دحروا هجوما للمغول وغنموا من أموالهم

بأن ما يذكره حقيقة تاريخية لاشك فيها.
«قال الراوى: فلما سمع الخليفة المقتدر منها ذلك قال لها: يا بنتى، قومى الآن وألبسيه سريع، وإلا ضربتك الضرب الوجيع. فقالت له: السمع ولا طاعة. وقامت من وقتها وساعتها، ودخلت وهى خجلانة إلى خزانتها، وقد وقع بها الخوف الشديد من والدها، وخافت أن يعدمها. وبكت وعظم إحراقها، وكثر شكواها وأنيبها، وقد حارت فى أمرها. فبينما هى باكية، وإذا أقبال عليها رجل من داخل المكان وهو يقول: يا رحيم يا رحمن. ثم إنه تقدم إليها وقال لها: لا تخافى ولا تحزنى فإن الرجل الفقير الذى أخذ العقد منك، وقد عاملت ربك فى الواسع، وهو عاملك فى الضيق، فافتحى الربعة ترين العجب من ذلك الأمر والسبب. وإذا سرت عند والدك ذهب عنك الهم والقهر، فتمنى عليه أرض مصر، فإنك تنالى بذلك العز والنصر. فقالت له: يا سيدى أنت من تكون من عباد الله الصالحين، زادك الله التوفيق والبنين؟ فقال لها: أنا الرجل الفقير الراجى رحمة القدير عبد الله بن عطاء الله. ثم إنه دعا لها بخير وإنصرف الأستاذ إلى حال سبيله».

تبرز السيرة الشعبية هنا صفات الخير التى أسبغتها على شجرة الدر ومكارم الأخلاق التى تعلو من مكانتها.

«قال الراوى: وأما السيدة فاطمة شجرة الدر، فإنها فتحت الربعة، وإذا العقد فيها فأخرجته، وفى عنقها لبسته، وخرجت به إلى عند أبيها، والعقد مضى فى رقبته. فلما أن رآها تعجب، ومد يده لينظر العقد الذى معه، فزاد عليها غضبه، وتخيل له أن ذلك سحر منها. ثم إنه صاح عليها وقال لها: يا فاجرة، نحن مسلمون ومتوكلون على رب العالمين، وما نعرف الأسحار، فمن الذى علمك هذا السحر والآثار؟ وأنا قد

وهي تأمر أن تنزل من على التخت وهي توليه لمن تريد من السادة أو من العبيد. فلما سمع الملك ذلك الكلام، وما قالوه من المرام أخذ الغضب، وزاد غيظه والعجب. وقد رآه الوزير على ذلك الأمر الخطير، فقال له: اعلم يا أمير المؤمنين، وخليفة النبي الأمين أن ما ذكره الرسل فهو حق. وما تكلمت به السيدة فهو حق، لاسيما وقد ورثت الأرض عن أبيها، ومعها تشريف بخط الملك وختمه. فطاعن فيه الأجانب، وأن كلام الملوك تام، وما رسلوا به لا بد من الإتمام، ولو كان خلاف ما فيه المصالح للأنام. وأنى أقول لك هذا الأمر ما له غير الحيل والخداع. وقد قال القائل في المعنى:

دارهم ما دمت في دارهم
وحبهم ما دمت في حبهم
واتبع فتات المكر حتى
تتال ما تروم من الأمر
فالصبر قليل على هذا القليل
فبالصبر تكفى كل أمر وبيل

«قال الراوى: فلما سمع الملك ذلك الكلام من الوزير، علم أنه بالأمور خبير. فقال له: والله يا شاهين لقد تكلمت بالصحيح، وما قلته فهو عندى مليح. لكن رأى الصحيح أنك تنزل إليها، وتسلم عليها، وتقبل الأرض بين يديها، واعطيها حق الخدمة، وانظر ما الخبر، ودبر هذا الأمر بفعلك. وأمر فيه بأمرك، فكل ما تراه حسن فهو عندى حسن. فأجابه الوزير بالسمع والطاعة. ثم نزل الوزير من عند الملك تلك الساعة.»

«قال الراوى: وكان للسيدة فى ذلك شأن عجيب، وأمر مطرب يدعى غريب، أريد أن أسوقه على الترتيب، بعد الصلاة على النبي الحبيب، صاحب البردة والقضيبي. وذلك أن السيدة فاطمة

ومتاعهم، ثم انقضت مدة الضيافة تسعين يوما. ثم طلب صلاح الدين من الخليفة أرضا بدلا من بلادهم التى أصابها الجذب والقحط فأعطاه أرض مصر والشام له ولقومه وله الخطبة والسكة ناسيا أنه كان قد منح أرض مصر لابنته شجرة الدر. ثم سار صلاح الدين والأكراد الأيوبيية إلى أرض مصر، فلما وصل الشام ولى عليها حاكما من قبله. وكذلك فعل فى كل البلاد حتى وصل مصر وعرف المصريون أنه هو الذى نصر أمير المؤمنين وفرجوا به فرحا شديدا. ثم حكم البلاد بالعدل وتواصل السيرة حكاياتها حتى تصل إلى وفاة صلاح الدين، فحكم بعده ابنه الكامل (كذا) الذى أنجب ولدا أسماه نجم الدين أيوب. وتغدى عليه السيرة الشعبية صفات التقوى والزهد. تولى الحكم بعد وفاة أبيه الكامل، ثم أنجب ولدا فسماه الصالح وكناه نجم الدين أيوب. وكان قد زهد فى الدنيا ورغب فى الآخرة حسبا تقول السيرة الشعبية. قرأ القرآن وعرف ما فيه من البيان. وسار فى الحكم سيرة عدل وإنصاف. وتسميه السيرة «أمير المؤمنين الصالح نجم الدين أيوب ولى الله المجذوب.»

وتمضى السيرة إلى مشهد آخر تظهر فيه شجرة الدر التى جعلتها السيرة تعاصر أربعة أجيال من الأيوبيين حتى تصل إلى زمن الصالح نجم الدين أيوب زوجها الحقيقى فى القصة التاريخية. «قال الراوى: هذا وقد تداولت الأيام والشهور والأعوام، فيسوم من الأيام بينما الملك الصالح جالس وإذا برعيه يقبلون الأرض بين يديه.

فقال الملك الصالح: ما الخبر؟

فقالوا: يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، إننا رسل السيدة فاطمة شجرة الدر بنت أمير المؤمنين المقتدر بالله تعالى. وقد أمرتنا أن نقول لك إن الأرض أرضها ومضرها، وأن حجتها معها،

أيادي، وكيف أن هؤلاء القوم لا يكرموني وهم يأكلون في بلادى، ويتمتعون بسوادى، ولا يباليون بى ولا يعتنون. فوالله لا كان ذلك أبدا ولو سقيت كأس الردى. وأنا أولى بأرضى منهم، وسوف أبعدهم عنها وأطردهم منها. فقال لها بعض جلاسها: يا سيدتى لا تعجلى فرما كان هناك مانع والصبر أولى من الاستعجال، فكاتبهم وانتظرى رد الجواب، ليظهر لك السؤال والخطاب. فلما سمعت من جلسائها ما ذكر، أرسلت هؤلاء الأربع القصاد وقالت لهم جميع ما ذكروه. فساروا إلى أن أقبلوا إلى أمير المؤمنين فأعلموه بما جرى عن يقين، فغضب كما ذكرنا، وصوب الوزير كما وصفنا ونزل الأغا شاهين كما قدمنا.

«يا سادة يا كرام: ولم يزل الوزير الأغا شاهين سائر إلى أن وقعت العين على العين، ونظروا إلى بعضهم الاثنين، فتمنى الوزير بين يدى السيدة فاطمة، وتأخر إلى ورانه، ثم تمنى ثانيا وثالثا. وقد رآته السيدة فاطمة بهي المنظر، حسن المخير، الشجاعة لائحة بين عينيه، تشهد له ولا تشهد عليه. فصارت تنظر إلى آخر مرامه، وما ينتهى إليه كلامه. هذا وقد قبل الأرض مرة أخرى (وأنشدها بضعة أبيات من الشعر).

«قال الراوى: ثم إن الوزير لما فرغ من شعره ونظامه تمنى بين يدى السيدة فاطمة كل ذلك، وهى تنظر إليه باهتة شاخصة فلما سمعت ما تكلم به من الكلام، وما قاله من الشعر والنظام، تبسمت ضاحكة، وتقدمت بنفسها حتى قربت منه، فقالت له: من أنت ومن تكون، وما الذى تريد؟ فقال لها: يا سيدتى أنا خدام الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب، وقد أرسلنى إليك وأنه يقبل يدك ويثنى بالسلام عليك. فقالت له: وما اسمك؟ قال لها: اسمى شاهين الأفرم. فلما سمعت

بعد أن تداولت عليها الأيام، وأن لها الأوان، فى علم الملك الديان، من إنفاذ المشيئة والامتنان. اشتاقت إلى الحج ذلك العام، إلى زيارة النبى عليه الصلاة والسلام. وقد اشتغل خاطرها ليلا ونهارا، وصارت لا يأخذها قرار. وقد أكثرت من الشوق والبكاء والأثين والاشتكاء، ثم ازداد بها، وقل أكلها وشربها، وعدمت صبرها وجلدها، وقصدت غرفة نومها، فأخذت مالها ونوالها، وثيابها وخدامها، وطلبت الأقطار الحجازية، وكان مرادها الإقامة هناك بالكلية وتتفق جميع ما معها من الأموال على الفقراء وأصحاب العيال، إلى أن حوت بتلك البقاع، لينالها أعظم انتفاع. هذا وقد ركبت دابتها، وأخذت باقى عشيرتها، ومن أراد مثل ما تريد، ثم طلبت الأرض والصعيد. وكلما أتت على واد من الأودية أو قطر من الأقطار، يتلقونها الكبار والصغار، ويخرجون إليها بالإقامات، ويسعون فى خدمتها ورضاها جميع السادات، ويكرمونها بغاية الإكرام، حتى ما يعلموا أنها بنت الإمام، وصارت هذه عادتها وهى تسأل على العيان من قومها وتدانيه، وإذا بلغها أمر مريض أقامت تسأل الله يشفيه. ولم تزل على ذلك الحال، إلى أن جاوزت الفيافى والتلال، وأقبلت إلى أن وصلت أرض مصر السعيدة، وأمرت بنصب الوطاقات فانتصبت، وقامت بالوطاقات إلى ثانى الأيام، فلم تجد أحدا يلقاها ولا يكرم مشاوها، ومع ذلك كان الوزير يعرفها، وكذلك الصالح لا ينكرها، غير أنهم لا يعلمون أن هذه الأرض أرضها، وحجتها فى يدها. ولذلك تركوها ولم تجد أحدا منهم يلقاها ولا سألوها، فصبرت إلى ثانى الأيام، وهى على هذا المرام، فلما آيست من ذلك غضبت غضبا شديدا ما عليه من مزيد، وقالت: واعجبا! كيف أن البلاد جميعها يكرموني ويهادوني، ولم يكن لى عليهم

فلما تكلمت مع الصالح أيوب أوقع الله حبه في قلبها.. وأقامت على ذلك المرام، وهي من أذل مقام، مدة ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع، أقبل الأغا شاهين على الملك وقال له: يا أمير المؤمنين أعلم أن السيدة فاطمة معها حجة من أبيها بأرض مصر وأقطارها ولم يكن أحد يمانعها في ملكها لأن كلام الملوك تمام، والذي أريد أن أشيره إليك سوف ألقيه بين يديك فاقبله، وإن كان غير ذلك فاهمله. فقال له: تكلم بما تريد، فأنت عندي رشيد، وكلامك مفيد. فقال له: أريد الأمان من ملك الزمان. فقال له: عليك الأمان. ولك الزمان. فقال أعلم يا أمير المؤمنين أن السلطنة لم تثبت لك، ولا هي حقك إلا بحركة واحدة، وذلك أنك تتزوج بهذه السيدة، وتأخذ الحجة منها، وتصير من الآن ولي أمرها، فإذا فعلت ذلك تثبت لك السلطنة دون العباد، وإطاعة جميع العباد وأهل البلاد، من غير عناد. فقال له: وكيف ذلك يا وزير الزمان. فقال له: إن سلمت إلى الأمر، فأنا أنهيه على خير ما يكون، بإذن من لا تراه العيون فقال له: الأمر إليك فافعل ما تريد.

تقول السيرة الشعبية في وضوح وصراحة إن حكم الأيوبيين لمصر مشكوك في شرعيته، وتقول في الوقت نفسه إن شجر الدر هي الحاكم الشرعي. ولكن السيرة تصنع حيلة لكي تجعل حكم الصالح نجم الدين أيوب شرعياً. وربما نجد في أحداث التاريخ الحقيقي ما يفسر هذا الموقف الشعبي من شجر الدر والصالح نجم الدين أيوب. أنظر الدراسة.

«قال الراوى: فعند ذلك نزل الأغا شاهين وتوجه إلى السراية واستأذن للدخول على السيدة: فأذنت له، فدنا خلف الستار، وتمنى. فأمرته بالجلوس فجلس. فلما استقر بها الجلوس قالت له: يا أغا شاهين. قال: نعم، فقالت له: ما تقول في

تعجبت غاية العجب وقالت له: لعلك من برصة. فقال لها: نعم هي بلدى، فقالت: وما السبب في مجيئتك إلى هذه الديار، وإقامتك بأرض الأمصار؟ فأعاد عليها القصة من أولها إلى آخرها، وكشف لها عن باطنها وظاهرها. فلما سمعت منه ذلك صدقته في كلامه، وأمرت بإكرامه لأنها كانت تعرفه من قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، وأن مقتدر كان يخاطب أبى الوزير، والآخر يكاتبه. وكانت السيدة تسمع من أبوها حديث الأغا شاهين وأنه قد صار فارساً عظيماً، وبطلاً جسيماً. فلما علمت حاله، وما تكلم به من قصته عطفته عليه وقالت له: ولأى شئ ما نزلت أنت وهذا الملك إلى لقائي مثل ما فعلوا غيركم من الناس الذين لا يعرفونى ولا يأكلون فى أرضى؟ فقال لها، وقد أحسن فى كلامه: يا سيدتى إننا لم يبلغنا الخبر بحضورك إلى هذا المكان إلا بالأمس. ولما بلغ الملك ذلك جعل يتهبأ إلى اللقاء والمقابلة، وأنا كنت مقبل إلى حضرتك ذلك اليوم ولو لم يأت رسولك إلينا. والان فما بقى لك إلا العزومة الملكية، والإقامات المستوفية. وكل ما تأمرى به مطاع، فمنك الأمر ومنا الاستماع. ثم إن الوزير مازال بهما وهو يمازجها، ويتحایل عليها ويمدحها ويشنى عليها بحسن معرفته وفطنته إلى أن لان جانبها، وطاب قلبها وخاطرها. ثم سمحت له فى الضيافة، وطاب على قلبها.

«فعند ذلك أمر الرجال بنقل الأنقال، وسار مع السيدة يجاذبها إلى أن رأت القلعة. قد أقيمت إلى السرايا، بإذن رب البرايا. هذا وقد علم الملك الصالح مجيئها، فتهبأ إلى لقائها، ولبس الملابس. وكان كل ذلك بمشورة الأغا شاهين. ثم إنه قابلها وسلم عليها فردت عليه السلام، وطاب بينهما الكلام، وهى داخل الستار وهو خارج مع الحضار،

أرض مصرنا إما أنكم ترحلوا وإما تدفعوا خراجها. فقال لها: يا سيدتى، أمرك مطاع، فالأرض أرضك ونحن عبيدك وخدامك، فإن تركتها لنا فنحن نواب حفظناها بكل الأسباب، وإن وليت غيرنا، فأنت المالكة لرقننا، غير أنى أقول إنه لم يوجد أحد يقيم بها مثل هذا الملك الصالح، لأنه فى كل الأمور ناصح. وأنا معى كلام خلاف ذلك، وأريد من حضرة مولانا الأمان. فقالت له: تكلم بما معك من الجواب، وخذ رد الخطاب، فقال: يا سيدتى ما على الرسول إلا البلاغ، ها أنذا أخذت الأمان، وما على فى ذلك من جناح. ثم إن الوزير نهض على الأقدام، واستقبل الستار، وخطب خطبة بليغة للزواج... « قال الراوى: فلما سمعت السيدة فاطمة ذلك الكلام تبسمت فى وجهه، وقد أظهرت الابتسام فظن الوزير أنها سمحت إليه بذلك المرام. فقال لها: يا سيدتى، أعلمنى بما تريدن حتى أنى أخبر الملك الصالح، فقالت له: اعلم يا وزير الفطنة والخير أنه لو كان رجل غيرك كنت قتلته، ولكن لا أؤاخذك فى ذلك، غير أنك تمضى إلى الصالح وتأمره بالرحيل عن هذه الديار، أو أن يسكن غيرها من الأمصار، وأنا أحكم فيها ما أريد من السادات أو من العبيد، والسلام على نبى تظله الغمام.

قال الراوى: فلما سمع الوزير من السيدة ذلك الكلام تأخر إلى ورائه، ورجع على عقبه، وخفت قلبه، وولى إلى ظهر السراية. فبينما هو كذلك وإذا بالأغواث لاحقين به وهم ينادون عليه: يا وزير الزمان! وهو يظن أنهم يطلبوه ليعاقبوه لأجل ذلك الشأن. ولما يزلوا خلفه حتى أدركوه، وعن مسيره عوقوه وقالوا له: ارجع إلى السيدة لأنها طلبتك لتقضى حاجتك. فقال لهم: أحقا ما تقولون؟ قالوا: نعم وحق من على العباد أنعم.

فعاد ثانيا إليها وهو بين المصدق والمكذب. فلما وصل بين يديها، أمرت له بالجلوس. وقالت له: قد قضى الله حاجتك، ويلفك أمنيته أنت وصاحبك، ومن الآن ها أنا بين يديه ولا أبخل بروحى عليه، وأكون له أهلا، وقد رضيت به يكون لى بعلا. ولا حياء فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن الذى يكره الحلال؟ فعند ذلك فرح الوزير فرحا شديدا ما عليه من مزيد. وقال لها: يا سيدتى أنا ما سعيت فى ذلك إلا لما علمت أنه ليس بحرام، ولكنى تعجبت فى أمرك غاية العجب. وكيف أنك رضيت بذلك بعد أن كنت امتنعت فما السبب الذى أوجب الطاعة؟ « فقالت له: اعلم أيها الوزير أن هذا الملك له سر عجيب، وأمر غريب. وذلك أنى بعد امتناعى، ومسيرك من قدامى، أخذتنى سنة من النوم، فوجدت الملك الصالح قد أتى ويده اليمين قد ضربنى بحرية من النار، وجعل يفرع بها على ويقول: لأى شىء ترجعى وزيرى خائب من بين يديك، ولا تقضى له حاجة؟ وعزة الربوبية إن لم تقضى حاجته، وتبلغيه أمنيته، وإلا نفدت هذه الحرية من ظهره، وأنا الملك الصالح، ثم صاح فانتبهت من نومي، وصحت على الخدام أن أدركوه، فأدركوك، وإلى عندى أوصلوك، وأنى قد رضيت بالزواج، وأنت وكيلي من غير لجاج.

« ثم خلعت على الوزير خلعة سنية، وأوهبته جزيلا العطية، وأمرته بالمسير إلى سيده الملك الصالح، فسار إليه، وقيل الأرض بين يديه، فوجده يندن ويقول: يا سلام يا سلام وعزة الله الأبدية لا بد عن ذلك، وكلام الوزير مؤيدا بقدرة الله. هذا وقد أقبل الوزير فقال له الملك الصالح: يا وزير لا بد أن السيدة فاطمة قد أقامتك وكيلا فى عقد الزواج. فقال له: كما ذكرت يا أمير المؤمنين، فقال له: لا بد أنها تعززت عليك

وأظهرت فى وجهك الغضب. فقال: لا يا أمير المؤمنين بل فرحت بفالك واستبشرت وخلعت على وأوهبت، وسيرت إليك بقضاء الحاجة، قال الراوى: ولم يذكر له شىء مما جرى من السيدة، فقال له: هكذا يا وزير الزمان شأن الوزراء أهل العرفان. ثم إن الملك أمر بتجهيز الولايم واصطناع الأطيخة الفاخرة والملابس، وكل ما يحتاجون إليه. وذلك كله بأمر الوزير الأغا شاهين. وقد أمر الوزير بإحضار ثلاث خزنات من المال من بيت مال المسلمين، فأحضروها. ثم أمر بتزخرف المكان، وحضرت الأمراء وأرباب الديوان والقاضى وشيخ الإسلام. ونهض الملك الصالح، ووقف بين يدى الشيخ وقال له: يا مولاي أعلم أن المقتدر بالله له بنت يقال لها السيدة فاطمة، وقد أقبلت تريد الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة النبی عليه وآله الصلاة والسلام. فوصلت إلى الأقطار المصرية، فطلبتها للزواج، وأرسلت إليها الوزير، فأخبرنى أنها أجابت. والآن فأسألوها، وفى أمرها فاستشيروها.

«فقام شيخ الإسلام، ووقف خلف الستار، وسأل السيدة عن ذلك الإخبار، فأخبرته بأن الوزير وكيلها، وفى كل الأمور هو مشيرها. فرجع وأعلم السادات بما قالته السيدة فاطمة من الخطابات. ثم انعقد العقد عليها بحضرة الجميع. وأخرج الوزير إلى شيخ الإسلام عقدا من الجواهر، وأنشريت الشرقيات، وتفرقت العطائيات. ولم يعد بين الملك الصالح وبين السيدة حجاب. ثم أقاموا على ذلك إلى أن أتى طلوع الحجاز بعد شهر رمضان».

«قال الراوى: فأخبرت الملك الصالح أنها تريد الحج، فأذن لها فى ذلك ثم أمر الأغا شاهين أن يتوجه معها إلى الأقطار الحجازية، لزيارة خير البرية. ثم شرعت السيدة فى المحمل المصرى،

وكسوة الكعبة، وأخذت معها العوايد إلى العريان. ثم نادى النادى معاشر الناس، كل من كان يريد الحجاز، وليست معه راحلة فيتأهب للسفر على راحلة السلطنة، ويتوجه مع السيدة فاطمة على غاية ما يريد، محبة رسول الله الملك المجيد. (يا سادة) فلما وقعت المناداة أقبل كل من كان مشتاق، ثم أخرجت الخيول المسومة، وكان عدتها مائتان وأربعون حصانا بالسروج المذهبة والنقوش المكوكة، ثم رتبت كاتب السرة. وحملت الأغا شاهين أمير حج. وسارت السيدة فاطمة بالركب وبين يديها جيوش الملك، وأغوث وعساكر المملكة بالنوبة التركى والمزامير الملكى، وقرعت المدافع وخرجت البنت من خدرها، والمرأة من خبأها، وتزينت أرض مصر، وسار الموكب والمحمل إلى جهة الحصوة، ونزلت السيدة فاطمة هناك وقد ساروا الناس يتأهبون إلى الرحيل.

«قال الراوى: ثم سافرت السيدة والأغا شاهين، وما زالت تفعل الخيرات التى يطول الشرح فيها إلى أن وقفت بعرفات، وطلبت من الله نوال الحاجات، وقضت القرىضة وتوجهت إلى المدينة وزارات وسلمت وصلت ودعت، وبما شاءت تكملت.. «ثم قرأت ما تيسر لها من كلام الله القديم، وسلمت على الرسول الأمين، وتأخرت بظهرها إلى خارج الحجرة النبوية، وهى فى غاية الأدب بالكلية، وتقدم الوزير الأغا شاهين، وقبل الأرض بين يدى رسول رب العالمين، وشكا إليه حاله، وشكا كل ما رأى من أحواله، ودعا وطلب وتوسل بالرسول إلى من احتجب وقرأ ما تيسر له من القرآن، وسأل الله القبول والإحسان.

«ثم تأخر الوزير بظهره إلى خارج الحجرة النبوية، وأراد أن يمضى مع السيدة فاطمة، وإذا به تأمل فرأى شخصا باكى العين فى غاية الاحتشام، واقفا بين يدى النبی صلى الله عليه

« فلما كان العام الإثنى عشر، وأقبلت من الحجاز، شرع لها فى الأفراح، والليالى الملاح، وطلبها إلى التقرب إليه، فأجابته إلى ما طلب، فأعطى ووهب، وأمر بالزينة ثلاثين يوماً. فلما كانت ليلة الزفاف، نزل الملك مع السادات والأشراف، وصلى معهم فى جامع سيدنا الحسين، وطلع إلى السراية، وعبر فوجد الفراشات والمخدرات والمساند والوسائد والورد واللمام والأفح والأقحوان. وقد أغلقوا عليه باب السراية، وتقدمت السيدة فاطمة وباسم يده، فجلس إلى جانبها، وتحدث معها، وقد رآها على رأى الذى قال هذه الأبيات، وصلوا على سيد السادات:

بدیعة حسن أفتنت كل الوری
مالها فى الملاح شبیه
إذا رمشت جرت بلحاظها

كل من أتى يقارن التشبيه

« قال الراوى: فدنا الملك منها وجر الحسام على مجرى الدم فانهرق بساعته، فاحش على حدته، وقد رآها درة ما ثقت، ومطية لغيره ما ركب، فأزاح بكارتها، وهجر بنت عمه بها، وأمر فى الحال بعزلها، فانتقلت فى الصالحية، وهى ديار أبوها الصالحين، وكان يقال لها السيدة شهوة، وكانوا من الأكراد الأيوبية.

« يا سادة وقد أقام الملك مع السيدة فاطمة، واحتوى على جميع ما تملك يداها، وثبتت له السلطنة، وأقام فى عز وهناء وغنى وجلس يتعاطى الأحكام... ».

هذه هى الصورة الشعبية للسلطنة « شجر الدر » على النحو الذى صاغه الوجدان الشعبى متجاهلاً تفاصيل الحقائق التاريخية لصالح الصورة التى تعبّر عن رؤية الناس للدور التاريخى لهذه السيدة: « وهو الدور الذى ارتبط

وسلم، وقد بسط يديه وتمنى وصلى وسلم عليه، وجعل يترنم بالأشعار.

« قال الراوى: فلما فرغ المتكلم من هذه الأبيات. الأغا شاهين شاخصين إليه، ومنظرين التقرب إلى بين يديه، وقد سمعوا منه ذلك النظم البديع. وتأمّله الوزير وإذا به الملك الكبير الصالح أيوب ولي الله المجذوب (يا سادة) وقد رآته السيدة فاطمة ونظرت به عينها، وسارت باهتة نحوه. فلما فرغ مديحه غاب عن الأبصار، فلما يجذبوا له خير، ولا وقعوا له على أثر، فتعجب الوزير منه غاية العجب وثبتت عنده كرامات الصالح وزاد حب الملك فى قلب السيدة فاطمة، ثم عادوا خارجين.

« قال الراوى: وبعد تمام حجهم ساروا راجعين إلى نحو مصر متأهبين، ولم يزلوا سائرين، وفى سيرهم مجدين إلى أن أتوا إلى العديلة.. ووصلت البشائر. وكان الملك الصالح أيوب منتظر قدومهم، ففرح غاية الفرح بوصولهم، وأمر الناس بالزينة والذكر وتلاوة القرآن. وقابلوا الحجاج من كان لهم من الإخوان. وزال من مصر الذل والأحزان، وركبت السيدة فاطمة مع الأغا شاهين فى موكب عظيم، ووهبوا وأعطوا، ولم يزلوا كذلك إلى أن وصلوا إلى قلعة الجبل، وقرعت لهم المدافع، وطلعت الملكة إلى السراية، وعملت مولد إلى خير البرية، وشرعت فى مولد الحسين، والملك لا يمنعها عن ذلك ولا يتقرب منها إلا بالسلام، ولم يزلوا كذلك إلى آخر العام وقد آن أوان الحجاز، ففعلت مثل فعالها الأول، وطلبت مع الوزير الأقطار الحجازية. ولم تزل هذه عاداتها فى كل عام من الأعوام، حتى كملت إثنى عشر عاماً وهى على هذا الترتيب، فسبحان من جعل لها فى هذا الخير نصيب كل هذا وهى بكر عذراء، والملك الصالح مقيم مع ابنة عمه.

مصادر ومراجع

- ١ - المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك.
- ٢ - ابن أبيك الدوادارى، الدرة الزكية فى تاريخ الدولة التركية.
- ٣ - ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب.
- ٤ - ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.
- ٥ - ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور.
- ٦ - العيني، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان.
- ٧ - أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام.
- ٨ - محمد مصطفى زيادة، حملة لويس على مصر وهزيمته فى المنصورة.
- ٩ - قاسم عبده قاسم، على السيد على، الأيوبيون والمماليك - التاريخ السياسى.
- ١٠ - قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية.

بأعز مقدسات المصريين - أعنى الدفاع عن بلادهم ضد الفرنج المعتدين. لقد ابتكر الوجدان الشعبى حلا يناسب الرؤية الشعبية لدور المرأة فى المجتمع ومكانتها السياسية والاجتماعية. لقد رفض الخيال الذى أبدع السيرة الشعبية أن تقوم امرأة على كرسى الحكم وعرش السلطنة (وهذا ما حدث فعلا فى التاريخ كما تسجله روايات المؤرخين فى الصورة التاريخية التى أوردناها)، ولكنه حفظ لشجر الدر الجميل بسبب دورها فى الدفاع عن البلاد وجعل حكم مصر حقا شرعيا لها (وهو ما رفض الخليفة العباسى الاعتراف به)، لكنه جعلها تتزوج الصالح نجم الدين أيوب - بصفاته وأخلاقه المثالية من وجهة النظر الشعبية - بحيث يكون من حقه أن يحكم البلاد التى تملكها زوجته بدلا منها من منطلق قوامه الرجال على النساء.

ترى هل يمكن أن نعتبر «الصورة التاريخية» و «الصورة الشعبية» بمثابة قراءتين متوازيتين للتاريخ؟